الخطاب الإسلامي المعاصر
وتشوهات الخلط والتسطيح

أ.د. عبد الحميد أحمد أبوسليمان

١٤٢٩/٣/١٦هـ

٢٠٠٨/٣/٢٤م

الخطاب الإسلامي المعاصر
وتشوهات الخلط والتسطيح

الدكتور عبد الحميد أحمد أبوسليمان(*)

إن علماءَ الأمة ومفكريها ومربيها ومثقفيها مدعوون إلى وقفةٍ جادةٍ شموليةٍ يعاد فيها النظر إلى مجمل ثقافة الأمة المعاصرة وفكرها وأطروحاتها وخطاباتها؛ لمعرفة ما أصابها من وجوه الخلل، وتشخيصه، وإعادة صياغة الفكر والمنهج والثقافة و«الخطاب»؛ بما يعيد للأمة عافيتها العقدية والثقافية والتربوية.

إشكالية الخطاب بين الفكري والسياسي

لا شك أن اهتمام مركز البحوث والدراسات الإسلامية بأمر «الخطاب الإسلامي» في هذه المرحلة من مراحل المسيرة المعاصرة للأمة، التي بلغت فيها من الضعف والتمزق والخسف دركاً غير مسبوق في تاريخها؛ هو أمرٌ – من الناحية الفكرية –في غاية الأهمية، ويجب أن يؤخذ من قبل فئات العلماء المستنيرين والمفكرين والتربويين والمثقفين المسلمين بكل الجد والإحساس بالمسؤولية؛ لأنه ما لم يرتفع «الخطاب الإسلامي» الموجَّه إلى الأمة، إلى المستوى المطلوب في خطاب الأمة؛ بحيث يقدم تشخيصاً صائباً فعَّالاً لواقعها، ودليلاً هادياً لعلاج أمراضها، وأملاً مشرقاً لمستقبلها ومستقبل أجيالها، فما لم يرتفع هذا الخطاب إلى هذا المستوى فسيبقى في جوهره أقرب

(*) أكاديمي.. مفكر.. (المملكة العربية السعودية).

ما يكون إلى الهذر واللغو، الذي يسهم في تردي أحوال الأمة وضعفها وتخلفها.

فالأمة وشعوبها لا يجمعهم رابطُ جنسٍ ولا لونٍ ولا إقليمٍ ولا لغةٍ، وهم مع ذلك يشتركون في مأساة التخلف والتمزق والفساد والضعف وانهيار المؤسسات العامة، ولا يفسر ذلك إلا مشتركُ الثقافةِ بين هذه الشعوب، وما تقدمه من خطابات إلى أبناء الأمة وأجيالها.

والإشكالية المهمة، أنه على الرغم من تبين علماء الأمة ومفكريها ورجال الإصلاح فيها أن الأمة تعاني من أزمة وجودٍ، عمرها على الأقل ألف عام، عبَّر عنها الإمام أبو حامد الغزالي، في عنواني سفرين جليلين؛ أولهما: هو «**إحياء علوم الدين**»، الذي يشير إلى أن الثقافة والفكر الديني في الأمة يعاني من أزمة، وثانيهما: هو «**تهافت الفلاسفة**»، الذي يشير أيضاً إلى أن الثقافة والفكر الفلسفي والمدني يعاني من أزمة.

ومنذ ذلك الوقت، وحتى الوقت الراهن، والأمة تعاني من أزماتها، التي ما زالت تتفاقم مع الزمن وتقصر جهودها عن مواجهة تحدياتها، على الرغم مما تعاقب في تاريخها، منذ ذلك الوقت، وحتى اليوم، من حركات إصلاحية في كل اتجاه، والتي أفادت منها الأمة ولا شكّ، ولكن من المؤكد أيضاً أن هذه الحركات لم تستنهض الأمة، ولم توقف تدهور الأحوال فيها، وهذا يعني أن أزمة الثقافة وأزمة الخطاب الإسلامي – بشقيه الديني والكوني – لم تزل قائمة، وأن الجهود الإصلاحية على هذا المدى الطويل لم تكن بالعمق، ولا في المستوى المطلوب، وأن مشوار الإصلاح ما زال بعيداً، ويعتمد الاعتماد الأكبر على جهد الإصلاحيين في إعطاء المجال الفكري، في مجال الإصلاح، فضاءً أوسع؛ ليؤدي دوره في إصلاح الفكر والثقافة وما ترتب على ذلك من تشوهات وانحرافات معرفية، واجتماعية نفسية، ووجدانية تربوية؛ جعلت جُلَّ فكر الأمة، في

جوهره وتأثيره وفعاليته، ألفاظاً ولغواً وهذراً؛ لأنه يصدر في كثير من جوانبه عن فكرٍ وثقافةٍ شائهةٍ، وعن نفسيةٍ ووجدانٍ شائهٍ لا يصدق العملُ فيه القولَ.

إن تركيز الحركات الإصلاحية حتى اليوم على «السياسي»، وعلى الوسائل والأدوات والآليات، إنما هو هروب من مواجهة الحقيقة بالعمق وبالشجاعة المطلوبة، وذلك لا يكون إلا بتأثير الكوابح التي صنعتها، والتي تمترس خلفها قصورُ ثقافةِ الأمة، وقصورُ مناهجِ فكرها وتربيتها، في عموم الخطابات الإسلامية التراثية الترهيبية.

إن حراك العمل السياسي وحده، دون إحياء موات فكر الأمة ووجدانها، لا يحل مشاكلها، ولا ينمي على الحقيقة طاقاتها وقدراتها، ويكون بذلك — وفي ضوء معطيات الصراعات والتحديات الكونية الحضارية -استنزافاً للطاقة، ولوناً من الحرث في البحر يسهم — في كثير من الحالات دون وعيٍ أو قصدٍ -في استمرار تدهور الأمة، وتفاقم أزمة وجودها.

لهذا؛ فإنه لا بد من إفساح المجال الفكري المعرفي والتربوي الوجداني لكي يؤدي دوره في مشروع الإصلاح، وتقديم الرؤية الإسلامية الفعَّالة السليمة للأمة، بعمقٍ وشجاعةٍ؛ بحيث تفسرُ هذه الرؤيةُ واقعَ الأمة، وتدل على سبل إصلاح هذا الواقع، وتعطي الأمة أملاً في المستقبل، متغلبةً في ذلك على كوابح الثقافة وخطاباتها الترهيبية الناجمة عن عصور الجمود؛ بالمبالغة في طلب النصِّ بتناول سطحي مجتزأ من السياق، يسيئ استخدام القداسة لتصبح «قهر قداسة» لا «هداية قداسة».

فتحقيق الإصلاح الفكري التربوي، وبالتالي إصلاح «الخطاب الإسلامي»، هو الأساس وأوَّل الطريق إلى أن تستعيد الأمة عافيتها العقدية، وسلامة مناهجها الفكرية، ونقاء ثقافتها المعرفية، وسلامة أساليبها التربوية؛ وعندها فقط تستعيد الأمة دافعيتها الاستخلافية العمرانية الحضارية الإسلامية.

وهذا يعني أن من أهم جهود الإصلاح في هذه المرحلة، أن يفسح «السياسي» الإصلاحي للفكر الناقد مجالاً حقيقياً للعمل في ركب الإصلاح، وإحياء موات الأمة، واستنهاض كوامن طاقاتها، وإحياء دافعيتها الخيرة؛ الأمر الذي يوفر «للسياسي» القدرة والطاقة للعمل والإنجاز.

ولذلك فإنَّ من الضروري أن نبدأ في المجال الفكري بفهم أسباب فشل الجهود الفكرية الإصلاحية في إصلاح «الخطاب الإسلامي المعاصر»، والارتقاء به إلى مستوى الأزمة الحضارية التي تعيشها الأمة، وحتى نحقق ذلك فإنه لا بد لنا من أن ندرك طبيعة أزمة «الخطاب»، وعمق جذورها، والعوامل والكوابح التي تجعل – حتى اليوم، بسبب مقاومة الفكر التقليدي الجامد، وبسبب سيطرة «السياسي» السطحي المتعجِّل – أمرَ إصلاح وجوه قصور هذا الخطاب، وما خلَّفه من فكرٍ وكوابح، من أصعب الأمور التي لا مناص من مواجهتها؛ حتى تضع الأمة حداً لتدهور كيانها، وحتى لا تزداد أزمة وجود الأمة عمقاً وتعقيداً، وتجرها إلى مزيدٍ من الضعف والتمزق والخسف والمهانة.

لقد بدأت ظاهرة تشوه «الخطاب» وآثارها السلبية – فيما نرى – حين تمت هزيمة رجال «مدرسة المدينة» على يد رجال النخبة السياسية العرقية القبلية العربية أولاً، والشعوبية الأعجمية لاحقاً، وبذلك استحكم الفصام بين النخبة الفكرية الإسلامية والنخبة السياسية، وما أورثه هذا الفصام والعزلة التي فرضت على النخبة الفكرية وتوظيفها، من عجزٍ فكريٍّ حوَّل – تدريجياً– فكرَ الممارسةِ والاجتهاد والتجديد والإبداع، الذي تبدَّى في الصدر الأول، إلى فكرٍ مدرسي نصِّي مغلقٍ، تنعدم في عصوره المتأخرة سماتُ الاجتهاد، ويقوم على التقليد؛ بحيث ينتهي – عند بعضهم – إلى أن يصبح النصُّ الضعيفُ – الذي قد لا يكون في الحقيقة صحيحاً – أولى من

الرأي، ويصبح حجّةً ودليلاً، على الرغم من أن الرأي الذي يُعتدُّ به – هو بالضرورة – يُعبر عن تحليل موضوعي، ورؤية كلية منضبطة، أو يستند – إذا عجز القياس عن بلوغ نتيجةٍ تتسق مع روح الشريعة وكلياتها – إلى مبدأ الاستحسان على أساس روح الشريعة ومقاصدها.

هذا التدهور الفكري والمفاهيمي كان لابد له من أن يظهر وينعكس في نوعية «الخطاب» وأهدافه، وفي الآثار المترتبة عليه في رؤية الإنسان المسلم الكلية، وفي بناء عقله ووجدانه وشخصيته.

إن تشوه الرؤية الكلية لأية أمةٍ ومجتمعٍ من أخطر ما تصاب به الأمم والمجتمعات؛ لكونه يمثل الإطار الذي يفعِّل مفاهيم الأمة وقيمها وجهودها.. ودون الرؤية الكلية يكون المجتمع مثل مَنْ لديه آلة إنتاجٍ متميزة ولكنها قِطَعٌ متناثرة، فمهما كانت جودة الأجزاء فلن تكون منتجةً وذات معنى ما لم تنتظم أجزاؤها في إطارها الكلي الذي يجعل منها آلةً منتجةً ذات معنى وفاعلية، وهذا هو حال كنوز ثقافتنا من قيم ومفاهيم، فهي على الرغم من تعلقنا بها، وإعزازنا لها، وترديدنا المستمر لها، إلا أن حياتنا خِلْوٌ من ممارستها والانتفاع بها؛ لأن المفاهيم والقيم هي أجزاء ووسائل لرؤية الأمة؛ لتفعيلها في واقع الأمة، فإذا تفككت الرؤية وتهلهلت وتشوَّهت فلا فاعلية للأجزاء، ولا فائدة ولا استعمال ولا تداول لها في حياة الأمم، حالها حال الآلة المفككة المتناثرة الأجزاء.

وتشوه «الخطاب» في تلك الظروف التاريخية جاء ولا شك نتيجةً طبيعيةً حتميةً لفكر العزلة والفصام بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية، ولا علاقة لذلك في عمومه بالنوايا؛ فكان لا بدَّ عندئذٍ من أن يتحول «الخطاب» بطبيعة الموقف، من خطابِ فكرٍ، ونظرٍ، وتدبرٍ واقتناعٍ، وتواصلٍ وممارسةٍ، وتعبيرٍ عن رؤية كليةٍ شموليةٍ فعَّالةٍ مولِّدةٍ

للقدرة على الجهاد والاجتهاد، وعلى التجديد والإبداع، وعلى احتواء متغيرات الزمان والمكان، ومستجداتهما ليصبح «خطابَ» ترهيبٍ وقهرٍ وقمعٍ، يصدر عن رؤية أحادية المعرفة، جزئية مغلقة، فكان بذلك خطاباً مشوهاً، يحتمي – بسبب العجز الفكري – بعلوية مقام القداسة، وبالمبالغة في طلب النصِّ، دون رؤيةٍ كلية مقاصديةٍ، ودون وعي بعامل الزمان والمكان، أو تملُّكٍ لناصية القراءتين في النص والكون.

ومنذ ذلك الوقت، وفي كثير من الحالات، اعتمد عموم «خطاب» عامة الأمة على أكداسٍ من روايات ضعيفة لأصحاب «الغفلة» و«المدلسين» و«الحكواتية» وأصحاب الأغراض، وعلى سوء التأويل والخلط لنصوصِ خطاباتٍ قُصِدَ منها على الحقيقة، وفي كثير من الأحوال، الجاحدون والكفار والمستكبرون والمحاربون، وصُوِّبَ هذا الخطابُ المخلطُ المجتزأُ – بسبب عجز الصفوة الفكرية الموظفة في خدمة الصفوة السياسة –إلى عامة الأمة المسلمة البائسة الغارقة في الجهل والفقر والمرض، والمرزوءة بإرهاب الصفوة السياسية المستبدة وفسادها وتبديدها وقهرها ومظالمها.

وهكذا سهل توظيف هذا «الخطاب» الترهيبي الديني لخدمة الصفوة السياسية ومصالحها الخاصة وانحرافاتها الشائهة عقدياً وفكرياً ووجدانياً، ليضيفَ «الخطابُ» الترهيبي الديني، إلى جانب الترهيب السياسي، ضِغْثاً على إبّالةٍ في سحق روح العامة؛ وليزيدَ طينَ عيشهم وذلَّ نفوسهم بِلَّةً، وليعينَ على إسلاس قيادهم، ويضعفَ على مرِّ التاريخ عزمَهم في التمسكِ بحقوقهم، والمشاركة في تدبير أمورهم، وصيانة مؤسساتهم، ورسم سياسات مجتمعاتهم، والتصرف بروح العدل والتكافل والإعمار في مواردهم وثروات أوطانهم وجهودهم.

ومنذ بداية معركة خلط الأوراق والخطابات – على العهد الأموي – فإن مقالةَ أبي

ذر الغفاري، رضي الله عنه، وهو عَلَمٌ من رجال مدرسة الرسالة، الموجَّهة إلى مؤسس دولة المُلْكِ العضوض، لم تأتِ عبثاً؛ حينما وقف «أمير المؤمنين» معاوية بن أبي سفيان على المنبر يخاطب الأمة بشأن موارد الأمة وبيت مال المسلمين، ويطلق عليه صفة «مال الله»، مستعيناً بتلك التسمية والوصف للانفراد بالتصرف فيه، مستخدماً أدوات توظيف الشكليات الدينية وسلطة علوية القدسية، عندها وقف له أبو ذر، رضي الله عنه، معارضاً ومصححاً ومنطلقاً من أسس سليمة لرؤية الأمة الكونية ولمنطلقات رسالتها السامية، يناصحه ويذكِّره بحق استخلاف الله للأمة في مواردها وثرواتها، ومساءلة حكامها والعاملين عليها، بشأن حسن التصرف بها، وردها إلى الأمة، وإلى أصحاب الحقِّ فيها، وإلى قرار شورتها، قائلاً له كلمة تسري في التاريخ، ويبقى نورها وصداها على مر الزمان: «لا، بل مال المسلمين».

لذلك ليس عجيباً أن تصل الأمة اليوم، وفي نهاية مشوارٍ طويلٍ وأمدٍ بعيدٍ، إلى ما وصلت إليه من التمزق والسلبية والتخلف، على ما نرى من حالها اليوم، وقد تشوَّهت رؤيتها الكونية الكلية، وتدهور فكرها ومنهجيتها، وتلوثت ثقافتها، وانهارت مؤسساتها، وسُحِقَتْ نفسيةُ أبنائها ووجدانهم، وتراجع حسُّ أنفتهم وكرامتهم؛ حتى أصبحت جُلُّ النفوس -كما نرى اليوم - مغشَّاةً برداء من مشاعر الأنانية ونوازع الفردية، وانعدام الإحساس بأمن الجماعة وتكافلها، وحتى أصبحت نظرة الإنسان المسلم إلى العمل والسعي في الحياة، في الحقيقة، سلبيةً مفرغةً من بعدها الحضاري والإعماري، ومن مدلولها الروحي؛ ليصبحَ إنساناً استهلاكياً ضعيفَ الدافعية الإعمارية الاستخلافية، ولتصبحَ أمتُه، بدورها، أمةً مهمشةً استهلاكيةً مستضعفةً، وهذا حالٌ بائسٌ لا يكون إلا إذا تشوه خطابُ ثقافة عامة الأمة؛ الذي يتمثل في الأساس في كتاب الفقه؛ لكونه

الخطاب الذي يمثل جوهر ثقافتهم واهتماماتهم الدينية، وهويتهم الحضارية؛ ولكونه أيضاً يخاطب المسلم، لا على أنه عضوٌ في أمةٍ، بل يخاطبه على أنه فردٌ؛ ذلك لأن كتابَ الفقه – بادئ ذي بدء – قد غاب عنه البعدُ العامُ في الإنسان؛ فلا حديث ولا وجوب ولا أحكام في الشورى والعدل والتكافل والإتقان وسلامة المؤسسات العامة وفاعليتها، بل أصبحت غاية الحياة مجرد «الذكر» الذي هو – في جوهره الروحي – تذكيرٌ ووسيلةُ ترشيدٍ للسعي الإنساني الإعماري الخيِّر في هذه الحياة الدنيا؛ لتحقيق مهمة الاستخلاف وأداء الأمانة، فيدعى «الذكر» على أنه «العبادات»، ولم يبق بذلك من أمر الحياة والأمانة والاستخلاف وجهادها وتسخيرها وإعمارها إلا فتاوى عقود، فتدعى مجرد «معاملات».

إنه ما من أمةٍ تتشوه مفاهيمُها ولبّ فحوى هويتها ووجدانها، وتحطّ من قيمة العقل، أن تصل إلى ما وصلت إليه أمتنا من التمزق والضعف والسلبية والتخلف، فهو حالٌ لابد منه لأية أمةٍ يتدهور فكرها، وتنهار مؤسساتها العامة، وليس ذلك بعجيب.

إن أحادية الفكر الإسلامي وجموده وتشوهه، وبالتالي تشوه الرؤية الكلية الإسلامية الحضارية، وتشوه ثقافتها، وخلط خطاباتها، قد أدى إلى ضعف الصفوة الحاكمة؛ فأصبحت، منذ أمدٍ بعيدٍ، لا تعرف وسيلة للتعامل مع معارضي سياساتها وأصحاب الرأي المخالف لرأيها، إلا سياسةَ الردع والقمع، ونصب السوط والسيف والنطع، وفتح أبواب السجون؛ وما ذلك ألا بسبب افتقارها إلى القاعدة الفكرية الحيَّة المبدعة التي تعينها على التطور، وحسن الأداء، واحتواء المتغيرات، ومواجهة التحديات.

فإذا أضيف إلى الترهيب السياسي وأغلاله وسجونه ترهيبُ «الخطاب الديني»، المتمثل في جهنم، ولظى الجحيم، وأهوال القبر ويوم الحشر، الذي ينتظر المؤمنين

المخاطَبين عقاباً لهم على صغير خطاياهم وكبيرها؛ فهي عذابات تترصدهم، حتى في خطابات صغارهم التربوية، وفي كل حركةٍ وسكنةٍ يتململون بها في لباسهم ومأكلهم ومشربهم، أدركنا عندها بعضَ أهمِّ أسباب خمود روح الأمة، وغيبوبتها، وسلبيتها، وعجزها، وازورارها عن تمثُّل رسالتها وحملها، وعرفنا عندها أسبابَ تفجُّرات أحداثها، التي هي في جُلِّها، إنما تمثل تفجُّرات العبيد البائسين اليائسين؛ التي ما إن تخمد، حتى تبدأ دورة جديدةً، من ممارسات القمع والترهيب السياسي والفكري والديني؛ التي تولِّد تفجُّراً جديداً، وما إن يخمد، حتى يتولد تفجُّرٌ آخرُ، وهكذا يتوالى مسلسلٌ تاريخيٌّ من التفجُّر والإخماد والقهر؛ يعمق حال أزمة الأمة ومعاناة أجيالها، ويستنزف طاقاتها، ويغيِّب رسالتها الحضارية الإعمارية الخيِّرة في خدمة الإنسانية.

ومن الأمثلة المباشرة التي تقرِّب إلى ذهن القارئ بعض ما أصاب «الخطاب الإسلامي» من خلطٍ وتشويهٍ، هو ما شاهدته في مؤتمر إسلامي عالمي عن الوحدة الإسلامية، وكانت المحاضرة عامة، والقاعة غاصَّة بالحاضرين، ولما كان الموضوع – فيما يبدو كما عبر عنه عنوان المحاضرة عن بعض قضايا وحدة الأمة – ليس من معارف المتحدث وقدراته، فقد أخذت القاعة تتململ في متابعة «الخطاب» السطحي المهلهل الممل، وإذا بالمتحدث يتحول بالحديث – وبشكل مفتعل ومفاجئ، ودونما مناسبة واضحة — إلى ما يجيده من الحديث عن الموت، وكيف سيلاقيه هؤلاء البشر، وما ينتظر المسيء منهم؛ فكانت أمامي صورة حية مذهلة معبرة عن سوء استخدام خطاب التذكير، وتحويله إلى خطاب ترهيبٍ وتوعدٍ؛ يلغي به المتحدث عقل المخاطَب، في محاولة يائسة منه للسيطرة على القاعة وعلى جمهور المستمعين، وشلِّ قدرتهم على النظرة الناقدة، والمحاكمة الواعية، لما يعرضه عليهم في خطابه ووعظه.

ومثل آخر من الأمثلة الفجَّة الكثيرة الشائعة لأسلوب استخدام الترهيب الفكري والديني، وسوء استخدام رموز القداسة؛ ذلك الأسلوب الذي لجأ إليه أحد الخطباء في خطبة من خطب الجمعة، بشأن أمر من أمور الهيئة، وهو موضوع إطلاق اللحية، إلا أنّ ذلك الخطيب لم يكن لديه الشيء الكثير الذي يمكن أن يوضح به للجمهور الحكمةَ من إطلاق اللحية، ولم يحاول أن يصل إلى إقناع المستمعين بالحبِّ والتسامي، وتحقيق صور الكمال الذي تسعى إليه الفطرة الإنسانية، بما يعرضه عليهم، علماً بأن كثيراً من الناس الذين كانوا يستمعون إلى ذلك الخطيب كانوا من حليقي اللحى، ويرون أنه أمر من شؤون الهيئة، وهو أمر على كل الأحوال موضع خلاف واجتهاد، ولكن الخطيب آثر فرض وجهة نظره بإرهاب المستمعين؛ من خلال تحويل هذه القضية الجزئية، من كونها قضيةً من قضايا الهيئة، مثلها في ذلك مثل شعر الرأس وأزياء زينة اللباس، إلى قضية عقيدةٍ وإيمانٍ، وكفرٍ وعصيانٍ؛ حيث إنه افترض أن حليقي اللحى هم بالضرورة منكرون – لا متأوِّلون – للسنة، والمنكِر لأمر النبي ﷺ منكرٌ للدين، ومنكر الدين كافرٌ.

ومن صور الترهيب غير الواعية، ما تسمعه وتحسه، حتى في قراءة بعض الأئمة، من حدة النبرة، في توجيه آيات الوعيد، وتكرار تلاوتها، وكأن ذلك نوع من الاستدراك وتحسين أداء القصد، بمزيدٍ من تأكيد الوعيد والترهيب، وكأن القارئ بذلك يتقمص الذات الإلهية في توجيه الخطاب إلى مَنْ خلفه من المأمومين، ولا يدرك مثل هذا الإمام أو القارئ أن «الخطاب» إلهيٌّ موجَّهٌ إلى الإنسان، قارئاً، ومستمعاً، وإماماً، ومأموماً، وعلى الجميع أن يقرأه، ويتدبره، وينصت إليه، بخشوعٍ وحسٍّ مرهفٍ، ولا يستثنى من ذلك أحد، بل على الإمام والقارئ، ومَنْ في مثل موقعهم أن يحسوا قبل سواهم أنهم

مقصودون بالخطاب، قبل أي أحدٍ آخر، فأسلوب الدعوة والوعظ الصحيح هو أن يخاطب المتحدثُ نفسَه بما يقول قبل أن يخاطب بقوله أيَّ أحدٍ سواه؛ فيكون خطابُه بذلك خطاباً مؤثراً، من منطلق الحبِّ، والترغيب، والمشاركة في الإحساس، والحثِّ على العمل الطيب.

والإشكال في الأمر هنا هو الفكر والمنهج الذي ما زال يسمح – حتى اليوم – لهذا اللون من «الخطاب»، ومن التعليم، باستخدام النصوص وتوظيفها، وتوظيف قدسيتها بشكل عشوائي، دون تحقيقٍ علمي ومنهجيةٍ شموليةٍ تتكامل فيها مصادر المعرفة، وتدرك أطراف القضايا المطروحة في واقع الحياة والمجتمع، وتكون قادرةً على إدراك أبعادها، وأولوياتها، وموضع المتغيرات فيها.

هذا الفكر والمنهج الترهيبي يفتقد المعرفة السليمة الفاعلة، ويفتقد الحبَّ والرفقَ والحكمةَ والكلمةَ الطيبةَ الناصحةَ المؤلِّفةَ للقلوب؛ التي تنشئ عقولاً واعيةً، ونفوساً ناضجةً، وأمةً قادرةً.

ولما كانت التربية وتعليم العقيدة والدين والثقافة بمثل هذا النوع من «الخطاب»، المستخدم في تكوين العقلية، وبناء النفسية المسلمة، كان أثر التعليم الديني، على ما نشاهد من عموم حال الأمة وأدائها، ضعيفاً وغيرَ إيجابي، ومن الممكن استقراء ذلك وملاحظته في ضعف استجابة عامةِ أبناءِ الأمةِ تجاه ما يلقى عليهم من توجيهاتٍ ومواعظَ، كما يمكن تحسُّسُه في عواطف الطفل نحو هذه المعارف، وأساليب تلقينها وتعليمها، ورهبته منها، وإعراضه الوجداني عنها؛ وذلك لافتقارها في هذه المرحلة التكوينية الغضَّة إلى الرؤية الاستخلافية الإعمارية، وإلى توظيف دوافع الحبِّ والإقناع والتكريم في تكوين الطفل المسلم وتربيته.

ويكفينا في هذا الموضع أن نشير إلى أنّ رسول الله ﷺ كان أباً وجداً ومربياً ناجحاً، وأنه لم يضرب طفلاً قطُّ؛ لأنه كان حفياً رفيقاً بالأطفال والناشئة، وكان في تعامله وتواصله معهم مدركاً لطبائع نفوسهم، ومراحل نموِّهم، وما يناسب عقولهم من أنواع الخطاب، ولذلك لم يكن في حاجةٍ، في منهجه التربوي الواعي، وفي تواصله الوجداني الفعَّال مع الصغار، إلى أن يسكب من عين طفل دمعةً، ولا أن يوجع في حياته ظهرَ واحدٍ منهم قط.

وانظر إليه ﷺ كيف خاطب الغلام عبدالله بن عباس، فهو لم يخاطبه خطابَ وعيدٍ أو ترهيبٍ وتقريعٍ، بل خاطبه خطابَ اعتمادٍ وتوكُّلٍ وإيمانٍ مطلقٍ بالله، خاطب به وجدانه خطابَ حب واقتناعٍ وشجاعةٍ، فالله حين يَتَواصَل معه الإنسانُ تواصلَ حبٍّ وتساندٍ يحفظه ويرعاه، وعندما يصدر في أفعاله وحركاته وسكناته عن اقتناع وإيمان فلن يستطيع أحدٌ أن يضره أو ينفعه إلا أن يشاء الله، فهو بذلك يخاطب وجدانه، وهو خطابٌ غيرُ خطابِ البالغِ الذي يحتاج إلى مخاطبة عقله؛ فيلزمه العمل وطلب الأسباب؛ «فيعقلها» ثم «يتوكل».

ومن الأمثلة التي توضح ترفق «الخطاب النبوي» بالناشئة، وإدراكه مداخل نفوسهم، ما وقع بينه ﷺ وبين الفتى اليافع الذي بلغ مشارف الحلم، وأقضَّ مضجعه ما استيقظ في جسده من نوازع الإنجاب والعشرة، وهو الذي لا يستطيع الزواج بعد، فأتى الرسولَ ﷺ يستأذنه في الزنى، فهدَّأ الرسول ﷺ من ثائرة من رأى في طلبه مجافاةً لأدب خطاب رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يفسحوا له، وأدنى، في رفقٍ، مجلسَ الفتى منه، وما يهمنا تربوياً هنا أنه أخذ الفتى بالرفق، ولم يخاطبه خطابَ تهديدٍ ووعيدٍ، ولا خطابَ حرمةٍ وجحيمٍ؛ لأن الفتى لم يأتِ ليطلب معرفة حكمٍ؛ لكون معرفته لهذا الحكم معلوم من الدين بالضرورة، كما يقولون، ولكنه جاء ليطلبَ حلاً ومخرجاً مما يعاني منه، ومن

الواضح أن معرفته بالأحكام لم تمنع منازعة نفسه معتلجَ طبعه في الليل والنهار، فقد أصبح يخشى لواعج نفسه ونوازعها، ويخشى أن تنسى خوفها في لحظات تغمُّ فيها رؤيتها، ويغيب وعيها، وتضعف مقاومتها، ولذلك رأينا الرسول ﷺ، بفهمه الثاقب لطبائع النفوس، قد بلغ أعماقَ نفس الفتى وطبعه؛ فأقام من نفسه على نفسه حارساً، ومن ضميره على ذاته وازعاً وضابطاً؛ حين استثار كرامة نفسه ومروءة عرضه، فسأله إن كان يرضى أن يُزْنى بأمه؟ فأجاب إجابة الآنف الكريم: إنه لا يرضى ذلك، فسأله إن كان يرضى أن يُزْنى بأخته؟ فكان منه بكل عزة النفس وكرامتها الجواب نفسه، وكرر عليه السؤال بشأن عمته وخالته، وكانت نفسه الأبية الكريمة ترفض تلك الخِسَّةَ وذلك العار، فلفت رسول الله ﷺ نظرَ الفتى إلى الحقيقة التي ما كان يجب أن تغيب عن النفس الكريمة، وهي أنها لا ترضى لغيرها ما لا ترضاه لذاتها؛ فخاطبه بكلِّ الحبِّ والتقدير لمعاناته النفسية: إنهن كلهن أمهات وأخوات وعمات وخالات[1]، ودعا له، فكان ذلك له قوةً نفسيةً ومانعاً وَوِجَاءً.

من الواضح مما تقدم أن «الخطاب الإسلامي»، والفكر الإسلامي، قد عانيا وما يزالان يعانيان من أزمة الفصام المعرفي، بين هدي الدين، وعلوم الفطرة والطبائع والوقائع (الكون)؛ مما أدى إلى عجز الفكر، وتشوه الخطاب والرؤية والثقافة، وانهيار المؤسسات، وسحق الدافعية والوجدان المسلم؛ ليصبح الإنسان المسلم فاقداً للدافعية الاستخلافية

(١) روى أحمد في مسنده (٢١١٨٥) أَنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ قَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: **ادْنُهْ**، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ فَجَلَسَ قَالَ: **أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ**، قَالَ: لا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**، قَالَ: **أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ**، قَالَ: لا، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**، قَالَ: **أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ**، قَالَ: لا، وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ**، قَالَ: **أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ**، قَالَ: لا، وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**، قَالَ: **أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ**، قَالَ: لا، وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ**، قَالَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: **اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ.

الحضارية، ولتصبح الأمة الإسلامية أمةَ شعوبٍ عالةٍ استهلاكيةٍ مهمَّشةٍ في عالم الفعل والأداء والإبداع والريادة (الإعمار).

- الرؤية القرآنية الكونية مفتاح الحل:

إن هذا الحال يدلُّ على أن «الخطاب الإسلامي المعاصر» لم يتجاوز - في الحقيقة - أزمته في تشوه الرؤية وبنائها العقدي الحضاري؛ الذي يجب أن يستلهم رؤيته في المقام الأول، من المصدر الأصل، وهو القرآن الكريم الذي يتجاوز الزمان والمكان، فهو الذي يبسط الرؤية الكلية الكونية الحضارية لمسيرة الإنسانية منذ أن بدأ الله خلق الإنسان حتى نهاية عالم الحياة الدنيوية، وهذا لا يتعارض مع الخطاب النبوي، في حكمة تطبيقاته على العهد النبوي، ضمن الظروف الزمانية والمكانية لأولئك الأقوام وذلك الزمان، كما يجب على الفكر الإسلامي أن يتخطى إشكالات أحوال المسلمين الأوائل الذين انشغالوا بالإلهيات والخرافيات بتأثير الحضارة اليونانية البائدة؛ التي بادت واستنفدت أغراضها، وبتأثير الخرافيات والإسرائيليات، وسواها من تراث الشعوب التي دخلت في الإسلام مصطحبةً معها الكثيرَ من عنصرياتها القبلية والشعوبية، ومن خرافياتها، الأمر الذي ترك، حتى اليوم، آثاراً سلبية وكبيرة - على ما نرى - في فكر الأمة وممارساتها، وانعكست آثار ذلك على رؤيتها الكلية.

إن على مفكري الأمة أن يتنبهوا إلى طبيعة المنظومة الإسلامية العقدية والثقافية والحضارية، وأن يتنبهوا إلى طبيعة المنظومات الأخرى؛ حتى لا يتخبطوا من جديد ويقعوا في شباك التلاقح العشوائي، بسبب التقليد الأعمى؛ الذي دفعنا ثمنه فيما مضى بشأن الحضارة اليونانية؛ والذي ما نزال ندفع ثمنه حتى اليوم، بسبب انبهارنا بالجانب المادي في الحضارة المادية الغربية المعاصرة، التي هي النقيض المقابل لمنطلقات الحضارة

الروحية الاستخلافية الإعمارية الخيِّرة؛ لنبقى – بسبب إشكالنا العقديِّ والوجدانيِّ معها – تلاميذ بلداء، وعالة فكرية وحضارية على تلك الحضارة، ولمدة تزيد على القرنين من الزمان.

وعلينا أيضاً أن نتخطى في فكرنا وفي خطاباتنا أخطاء تخليط «الخطاب الإسلامي»، وعجزه –في كثيرٍ من الحالات – عن الانضباط المنهجي، وإدراك بعد الزمان والمكان في تطور الأمم وبناء المجتمعات والحضارات.

وعلينا أن نستعيد الرؤية الإسلامية الحضارية الكونية التوحيدية الاستخلافية السببية الإعمارية الخيِّرة؛ التي يستعيد بها الإنسان المسلم الدافعية الريادية الحضارية، والرسالة الإنسانية السامية العالمية، والمنهجية الفكرية التوحيدية السننية، والثقافة المبرَّأة من أمراض العنصرية والشعوذة والخرافة، وبناء نظام الاجتماع الإسلامي، الذي يأبى توظيف الدين والقداسة خدمةً لأصحاب السطوة والسلطان، ليكون ذلك النظامُ مبنياً على الشورى، واقتناع الإنسان المسلم، وإيمانه بمبادئ الإخاء والعدل والرحمة والسلام.

إن القرآن الكريم الذي هو كلمات الرسالة الإلهية إلى الإنسان، والذي تعهد الله بحفظه، ما يزال بين أيدينا المصدرَ الأولَ الأشملَ للرؤية الإسلامية الكلية الكونية على مدى الزمان والمكان، علينا أن نعود إليه أولاً ودائماً؛ نستلهمه الرؤية والمنهاج والقيم والمفاهيم؛ التي يجب أن نوظفها بفهم واقتناع وعلم في بناء حياتنا ومجتمعاتنا وأمتنا وحضارتنا الإنسانية العالمية، مسترشدين في ذلك بتطبيقات نموذج العهد النبوي في الحكم وبناء الأمم، وحكمة هذه التطبيقات وتعاملاتها الزمانية والمكانية؛ التي جعلت من قبائل الأعراب البدائية[1] أمةً حاملةً رسالةَ هدايةٍ ونورٍ، جددت بها الحضارة

(١)﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ (الحجرات:١٤)، ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ... وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ (التوبة:٨)، ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِن بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ.... وَيُفۡسِدُونَ فِي

الإنسانية، وفتحت أمامها آفاق العلم والمعرفة التوحيدية السننية؛ التي أرست الأساس لكل ما حققته وتحققه الحضارة الإنسانية من تقدمٍ علميٍّ وتقنيٍّ. وللأسف، فإن الحضارة المعاصرة لم تستلهم - فيما وراء مفهوم السببية ورفض الخرافات الدينية الإسرائيلية- منطلقاتِ الحضارة الإسلامية الإنسانية السامية التي تقوم على مبدأ «القوة للحق»، انطلاقاً من مبدأ التوحيد الإلهي والكوني والاستخلاف الإنساني الخيِّر، على أساس مبادئ العدل والإحسان والرحمة والإخاء والسلام.

إن كل ما تعانيه الحضارة المادية العنصرية التظالمية المعاصرة، التي أغرقت العالم دماءً وظلماً، هو بسبب انطلاقها من نقيض شريعة العدل الإسلامية، وهو مبدأ «الحق للقوة» الذي هو شريعة الغاب والتظالم الحيواني المنْبَتِّ عن عالم الروح؛ والذي يتمثل في عقائد القومية، وسياسات القوة، ومظالم الاستعمار العنصرية، والعدوان على الشعوب المستضعفة، وسفك دماء أبنائها، واستعبادهم، ونهب ثروات بلادهم، كما يفسر ظاهرة انهيار الأسرة، وتفشي مظاهر الانحلال الأخلاقي في المجتمعات الأيديولوجية المادية؛ لأن عالم الغاب لا مجال فيه لطلب قيم الأخلاق الأسرية.

ولو تدبرنا القرآن الكريم لرأينا التطابق بين واقع طبع الإنسان وفطرته، وحقيقة التصوُّر القرآني لهذا الإنسان ورؤيته الكلية؛ التي تنطلق من طبعه وفطرته؛ لترشِّد جهده، وتهدي مسيرته، وتعينه على تحقيق الغايات العليا التي تتطلع إليها ذاته وفطرته، فتدعم قوى الخير في نفسه، وتعزز دافعية العمل والبذل والبناء والتسخير والإعمار الخيِّر في وجدانه، فالإنسان كما هو مشاهدٌ بالفطرة «خليفةٌ» في الأرض، مكَّنه الله منها و(سخَّرها) له، وطوَّعها لحاجاته، وزوَّده بوسائل القدرة على السعي فيها، بقوة العقل

ٱلْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (البقرة:٢٧)، ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ.... ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ (الأنفال:٥٥-٥٦).

والإدراك(١) والأفئدة ووسائل السمع والبصر والنطق والبيان، ووكَّل إلى الإنسان أمانة إعمار الأرض، وزوّده بالإرادة وقوة الخيار، وحمَّله بذلك أمانة(٢) بناء الحضارة وتسخير خيرات الأرض رزقاً وطيباتٍ وزينةً، على شاكلة الخلق في الجمال والإبداع والعطاء، بالحق والعدل والرحمة والسلام، وسيادة شريعة الروح، وسبيل الرحمن؛ حيث «القوة للحق»، وعدم السعي بالطغيان والفساد واتباع شريعة الطين والغاب؛ حيث يسود التظالم والتغالب ليكون «الحق للقوة»، «فذلك سبيل الشيطان» .

هذه هي الغاية الإلهية من خلق الإنسان في الأرض كما فطره الله، وكما عبَّر عنه القرآنُ التعبيرَ الصحيحَ الدقيقَ، فبدأ الإنسان طفولة الإنسانية وهو لا يعرف كيف يواري سوءة أخيه؟ وكيف يدفنه؟ فبدأت الإنسانية كما يبدأ الطفل لا يعلم شيئاً، فينمو، ويتعلم، ويبدع، ونمت الإنسانية، وازدهرت، وترعرعت، على تعاقب القرون والأجيال، والمتغير هو إعمار الأرض، كما عبَّر عن ذلك القرآن الكريم: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود: ٦١) حتى أصبح الإنسان قادراً على أن يجوب الأجواء، ويرتاد الكواكب، ويشارك الطير في الفضاء، والأسماك في أعماق البحار، والله يعلم ما سوف تأتي به التقنيات الدقيقة والعليا وآفاق مستقبل العلم والمعرفة.

---

(١)﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِى ٱلارْضِ خَلِيفَةً... وَعَلَّمَ ءادَمَ .... فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٣٠-٣٨)، ﴿ عَلَّمَ ٱلإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ٥)، ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلاكْرَمُ﴾ (العلق: ٣)، ﴿ خَلَقَ ٱلإِنسَٰنَC عَلَّمَهُ ٱلبَيَانَ﴾ (الرحمن: ٣-٤)، ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلابْصَٰرَ وَٱلافْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨)، ﴿ ٱلَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْء خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلإِنْسَٰنِ مِن طِينٍG ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مّن مَّاء مَّهِينٍH ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلابْصَٰرَ وَٱلافْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (السجدة: ٧-٩).

(٢)﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلامَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلارْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلإِنْسَٰنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (الأحزاب: ٧٢)، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَاG فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَاH قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّٰهَاIوَقَدْ خَابَ مَن دَسَّٰهَا﴾ (الشمس: ٧-١٠)، ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِHوَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِI وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَينِJ فَلاَ ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ (البلد: ٨-١١).

ومثال الإنسانية في ذلك مثال الإنسان الفرد إذا ما اكتمل عطاؤه تكون مهمته قد انتهت، وكذلك الإنسانية، حين يكتمل أداؤها وإعمارها ينتهي وجودها أيضاً، يقول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس:٢٤)، وعندها ترقى الإنسانية إلى عالم الروح والأبدية (إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ): ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (يونس:٢٦)، ﴿ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ (النجم:٣١)، ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:١٩٥)، ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ﴾ (آل عمران:١٤٨)، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٩٧)، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة:٧-٨)، « **وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ...**»[١]، « **إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**»[٢].

فالفطرة الإنسانية تأهلت وأُعِدَّتْ للحياة والعمل والإبداع والإعمار والتسخير والاستمتاع بخيرات الأرض، دون إفسادٍ ولا سوء تسخيرٍ ولا تبذيرٍ، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم، وكشف أسراره للإنسان؛ ليشحذ همته، وليعمل ويبدع، ويعمر ويسخِّر، ويستمتع، ولكن على هدى وبصيرة؛ تحقيقاً لفطرة ذاته الروحية الخيِّرة، وتنفيذاً للإرادة الإلهية في الاستخلاف وحمل الأمانة، وتمحيصاً للنفوس الخيرة ووضعها موضعها

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه أحمد.

الصحيح من التكريم في عالم الروح، أما النفوس المفسدة الشريرة حقاً وقصداً، فتكون حيث تستحق، فما كان للنفائس إلا موضع التكريم والتبجيل، ولا يكون للنفايات والقاذورات إلا حاويات النفايات حتى لا تؤذي النفوسَ الطاهرةَ ولا تزكمها، وغير ذلك لا يكون.

ولذلك؛ فالرؤية والعقيدة الإسلامية الكونية الحضارية، كما جاء بها القرآن الكريم، ليست إملاءً ولا اعتباطاً ولا أصراً، ولكنها تحقيق لغايات فطرية، وتحقيقٌ لمعنى وجود الإنسان وذاتيته، وترشيدٌ لنوازعه، في السعي والإبداع والتسخير والإعمار، على أن يكون ذلك في سبيل الحقِّ، وعلى هدي شريعة الخير والعدل والإحسان والإتقان، إنه استجابةٌ لنوازع النور والروح في فطرته ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ ﴾ (النساء:١٣٥)، ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ ﴾ (النساء:٥٨)، ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ ﴾(النساء:١٣٥)،﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ﴾(الأنعام:١٥٢)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨)، ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٩٠).

فكلُّ عملٍ، وكلُّ سعيٍ، وكلُّ إتقانٍ، وكلُّ إبداعٍ، وكلُّ تسخيرٍ، وكلُّ تيسيرٍ، وكلُّ إعمارٍ، إن كان في سبيل الخير والعدل والإصلاح، وتحقيقاً لتطلعات فطرة الروح في

طلب الخير، وحب الحق والعدل والرحمة والسلام، التي هي صفات الرحمن، فهو إتقانٌ وإحسانٌ وعملٌ صالحٌ من سجايا المؤمنين، فهم يسعون إلى تلك الصفات ويحققون بها ذواتهم، وينالون ثمارها، ويستمتعون بها في الحياة الدنيا، وترافقهم وتكون معهم وينالونها ويستمتعون بها أيضاً في عالم الأبدية والروح «خالصةً» من كل دنس الطين ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٢)، ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة:٢٥).

فرؤية الإنسان المسلم الكونية هي رؤية توحيديةٌ استخلافيةٌ حضاريةٌ خيِّرةٌ، تحقق الفطرة والذات ولا تنكرها، وتدعو إلى العمل، وتحفِّز على السعي والإعمار، بكل الجهد والإخلاص والإتقان، طلباً للتيسير والخير والإصلاح، فهذا ما تسعى إليه الفطرة، وتتحقق به الذات ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (النور:٥٥)، والعمل الصالح هو العمل السنني المتقن الذي يقصد منه التسخير والتيسير والإصلاح والإعمار، وليس مجرد أعمال الذكر من تلاوة وصلاة وصيام، فإن هذه الأعمال هي، ولا شك، «ذكرٌ» وهدايةٌ ودليلٌ إلى العمل الصالح[1]،

(١) فالآية الكريمة – في منطوقها العام – تقرر شروط الاستخلاف والقدرة والريادة، وبناء الدول والحضارات، في هذه الحياة الدنيا. وهو أنه حتى تحقق الشعوب والأمم الريادةَ والقيادةَ لابد من أن يتوافر لها عنصر الإيمان، وهو – في عمومه – عنصر الرؤية والاقتناع ووضوح الهدف والغاية والتعلق بها، ولكن الإيمان، أي الرؤية، لا تكفي وحدها ما لم تكن رؤيةً تؤدي إلى العمل.

والأداء والرؤية وإرادة العمل، هي أيضاً وحدها لا تكفي ما لم تكن وفق منهج عقلي سنني يهدي العمل ويرشِّده ويجعله يعطي الثمر المرجو منه، وفق السنن والنواميس الإلهية في خلق الكون، أي إنه عملٌ صالحٌ من الناحية الموضوعية. فلا يكفي أن يحفر المرء حفرةً في الأرض لإخراج الماء، ما لم يكن دارساً وعارفاً بمسارب المياه وتدفقاتها تحت سطح

مثلها في ذلك مثل كتاب إرشاد تركيب الآلات المنتجة؛ إذ لا معنى لقراءة الدليل ما لم تركَّب الآلة وتُشَغَّل وتُنْتِج، ولذلك فإنه « **رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلا السَّهَرُ**»(١) و﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت:٤٥) و﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ (الماعون:٤-٧)، ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ (طه:٢-٣)، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر:٤١)، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢)، ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (البقرة:١٥١)، ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة:١٥)، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف:١٧٠).

الأرض، فرغبة إخراج الماء، وحفر الأرض، لا تفيد ولا تعطي الثمرة المرجوة منها ما لم يكن قد تمَّ تحديد موضع الحفرة بناءً على علمٍ ودرايةٍ بموقع المياه، هذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

هذا فيما يختصُّ بالاستخلاف والقدرة والريادة؛ بالمعنى العام، أي إنه علوٌّ واستخلافٌ وتمكينٌ لمن تتوافر فيه الشروط، وهو ما نشاهده اليوم من علوِّ القوى المادية وتمكينها في الأرض، أما عالم النور والروح فإن العمل، وصلاح العمل، وسننيته؛ إنما يتعلق بالنوايا وبسلامة الإيمان، وليس عموم مجرَّد الإيمان وأثر ذلك على نفسية الإنسان، فأمر عالم الروح يتعلق «بالأمانة» و«سلامة الخيار»، فإن كان إيماناً بالله، وحباً فيه، وطاعة له، وقصداً لنفع خلقه؛ فللمؤمن الأجر والثمرة «خالصة» في الآخرة، وإلا كان نصيبُ المشرك، والمنكر، والمستكبر، والضال، نصيبَ الدنيا، وما له في عالم النور والروح من خَلاق، ولذلك؛ فإن المؤمن المهتدي إذا اجتهد وأصاب فله أجران: أجر الثمر في الدنيا، وأجر النية في الآخرة، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر النية في الآخرة فقط، أما الدنيا فليس له فيها ثمرٌ.

(١) أخرجه ابن ماجه.

وهذا يعني وفق منطوق عموم الآيات أن مجرد الإيمان والنية لا يكفي في هذه الحياة الدنيا لتحقيق القدرة والريادة ما لم يصحبها موضوعياً العملُ، وبشرط أن يكون عملاً صالحاً؛ أي عملاً وفق السنن والنواميس الإلهية في تسيير الكون وتسخيره، ولذلك؛ فإنه يكون لمن اجتهد وأخطأ أجرٌ واحدٌ، وهو أجر النية والإيمان في الآخرة، أما مَن اجتهد وأصاب موضوعياً وسننياً فإنَّ له أجرَين؛ أجر التسخير والثمرة في هذه الدنيا، وأجر النية والقصد الإيماني «الخيِّر» في الآخرة؛ لأن هذا الأداء الخيِّر هو «أداء أمانة الاستخلاف».

إن ما انتهى إليه حالُ المسلمين من التمزق والتخلف والتهميش لا يفسره إلا تشوه الخطاب والرؤية، وتشوه المنهج، وتشوه الثقافة، وتردي الوجدان، وانهيار المؤسسات، وضياع حسّ المسؤولية، والبعد العام من شخصيتهم المعاصرة، الأمر الذي أدى بهم –كما نرى– إلى ضعف الدافعية الحياتية الإعمارية الحضارية الخيِّرة التي أودعها الله في فطرة البشر، وجعلها غايةَ أصل خلقهم وفطرتهم.

وبكل تأكيد فإن ما أصابهم من تشوهات وخلط وسطحية في الخطاب كان لا بد له من أن ينتهي بهم إلى ما هم عليه من الضعف والتمزق والهوان والغثائية.

ومن ظواهر المرض العقدي الفكري التربوي، الذي يحيِّر اللبيب، بشأن نفسية الإنسان المسلم، الذي يجب أن يتولى الخطابُ أمرَ علاجه، وأن يحلَّ إشكاليته، هو ذلك التناقضُ الذي يوضح عمق الهوة التي بلغها التشوه النفسي الوجداني لدى الإنسان المسلم، الناجم عن خلط الخطابات، ومبالغات الترهيب، وسوء استعمال جلال القداسة.

فنحن نعلم أن الإنسان المسلم، على مرِّ عصور التخلُّف والانحدار، يخاف من الله ويرهبه، ولا يرى فيه إلا العين التي ترصد حركاته وسكناته وهفواته في سره وعلنه، ومن يكون إحساسه الغالب هو الخوف، فهو لا يحبُّ، وهو يبتعدُ وينأى، ويعمل بالحد الأدنى، ولذلك نجد أن الإنسان المسلم المعاصر لا يكاد يعرف معنى إحساس الحب والتعلق الحق بالله، وهذا لا يتفق ولا يتسق مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ (البقرة:١٦٥)، ويقول الرسول ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**»[1] إلا إذا شئنا أن نقول: بأن (المؤمنين) بالمعنى القرآني، لم يعودوا موجودين في هذا الزمان!!

وهذا على وجه القطع فهمٌ غير صحيح لهذا الإشكال، وإنما كل ما يدل عليه أن المسلم يعاني من إشكال فكري عليه أن يسبر غوره، ويحل عقدته؛ ليجد نفسه، ويحقق ذاته، كما يحب ويرغب؛ لأن الحقيقة أن أبناء الأمة مؤمنون، وأن هناك أمة هي في أشد الشوق لحبِّ الله؛ لأن المسلم في الحقيقة – وهو لا يعلم – يحبُّ اللهَ لكونه أصلاً يحبُّ الخيرَ، ويحبُّ الحقَّ، ويحبُّ العدلَ، ويحبُّ الرحمةَ، ويحبُّ السلامَ، وهذه الصفات هي صفات الله في ضمير المسلم. والمسلم كذلك يكره الشر والباطل والظلم والقسوة والعدوان، وهذه الصفات هي صفات الشيطان، لكن هذه الأمة بما ينصبُّ عليها من خلط الخطابات بالتهديد والوعيد قد أضحت دون دليلِ رؤيةٍ وعملٍ، ودون بوصلةِ إبحارٍ، ودون خارطةِ طريقٍ، فما عادت تعرف ذاتها، ولا تهتدي طريقها؛ لأن الخطابات الإسلامية لم تَعُدْ تفرِّقُ بين المؤمن من جهة، والجاحد والمعاند من جهة، وأصبح

(١) أخرجه أحمد.

المسلمون، في خطاب الهوية والوعظ، هم من «أكثر الناس» «الذين لا يعلمون» ولا يصلحون، ويذنبون ويعصون ويفسدون!!!.

والكثير من هذه الخطابات الموجهة إلى المسلمين والمؤمنين، وإلى الصغار والأطفال قبل الكبار، وما هو على شاكلتها، هي جهلٌ وتخليطٌ في الخطابات، وهي توظيفٌ سلبي للدين والقداسة، وقد انتهت ترهيباتها إلى تكوين نفسية العبيد بين أبناء الأمة، تلك النفسية التي تتسم بالفردية والسلبية والخوف؛ الأمر الذي أسلس قيادة الأمة، وأفسد حياتها، وهمَّشها، وجعلها –كما نرى– في مؤخرة ركب الأمم، أداءً وقدرةً وكرامةً.

يجب أن نكون على يقين أن الإنسان المسلم في جوهره إنسانٌ خيِّرٌ، وقوةٌ خيِّرةٌ، لو فُعِّلَ وأُحْسِنَ خطابه؛ فهو يحب الخير، ويحب الحق، ويحب العدل، ويحب الرحمة، ويحب السلام، وهذه صفات الله، فهو في الحقيقة يحبُّ الله حباً حقيقياً، وهو لا يعلم.

والإنسان المسلم يكره الشر، ويكره الظلم، ويكره القسوة، ويكره العدوان، فهو يكره الشيطان وطريقه، كراهة حقيقية، وهو لا يعلم.

والله سبحانه وتعالى يعلم ما في فطرة الإنسان وطبعه من صراع نور الروح وظلمة الطين، فهو غفورٌ رحيمٌ لمن أحبه وسعى إليه، يقبل توبته، ويمحو زلته، ويقيل عثرته، ويغفر سيئته، ويضاعف حسناته، ويفرح بعودته فرحَ الرجل في الصحراء وقد ضاعت راحلته وعليها طعامه وزاده، ومن ثم وجدها، « **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ** – أَوْ **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ** – **لَوْ لَمْ تُخْطِئُوا لَجَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْمٍ يُخْطِئُونَ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ** »[1].

ولو تبين المسلم حقيقة أمره ومشاعره ومعنى حياته، ولو أخذه الخطاب في ذلك

(١) أخرجه الإمام أحمد.

بالرفق والحب والتنوير والتيسير، لأقبل واجتهد، وسعى وأصلح، وأتقن وعمَّر، وحقق ذاته كما فطره الله، ولحرص على رضا المحبوب، وخشي من غضبه خشية حبٍّ وخوفٍ إيجابي يقربه من الله ولا يبعده عنه؛ لأنها ليست خشية خوفٍ ورعبٍ ورهبةٍ تُيَئِّس الإنسان وتبعده[1] عن ربه ودينه، وتقتل في نفسه دوافع العمل والإتقان والإعمار؛ ليصبح أنانياً فردياً ليست له في الحياة إلا غاياتٌ أنانيةٌ يأخذ منها ولا يعطي إلا بدافع سلبي أناني، لا بدافع إعماري إيجابي يجد فيه ذاته، ويحققها بالتفاعل البنَّاء والتواصل والعطاء، فهو على وجه الحقيقة كائنٌ مهمّشٌ ميتٌ في ثياب الأحياء.

إنه من المؤسف في خلط الخطاب المسلم الشائه، وبالتالي في الضمير المسلم الذاهل، أن يقترن «الرحمن» بـ«الحرمان»، وأن تقترن «البهجة واللذة» بـ«الشيطان»، وكأن المسلم في ركاب الشيطان يحقق ذاته وفطرته، وفي ركاب الرحمن يسحق ذاته ويخمد فطرته، والله سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه في خطاب المؤمنين والناس أجمعين:

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣١-٣٢)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ (المائدة: ٨٧-٨٨)، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ

(١) أدعو أخي القارئ الكريم للاطلاع على مقال نشرته في مجلة إسلامية المعرفة، التي يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي في العدد ١٤ سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م عن قانون العقوبات الإسلامي الذي يعد أحد القضايا، التي تثير الخوف والرعب عند كثير من الناس، ومن المسلمين، وحينما تأملتها بخطابٍ إيجابي تكشفت عن أبعاد لم تكن تخطر لي على بال، وبدت في ثوبٍ إيجابيٍّ مطمئنٍ لا يثير خوفاً ولا رعباً.

فِيهَا ﴾ (هود: ٦١)، ويقول رسول الله ﷺ: « **وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**...».

المسؤولية على عاتق المفكرين والتربويين

إن علماءَ الأمة ومفكريها ومربيها ومثقفيها مدعوون إلى وقفةٍ جادةٍ شموليةٍ يعاد فيها النظر إلى مجمل ثقافة الأمة المعاصرة وفكرها وأطروحاتها وخطاباتها؛ لمعرفة ما أصابها من وجوه الخلل، وتشخيصه، وإعادة صياغة الفكر والمنهج والثقافة و«الخطاب»؛ بما يعيد للأمة عافيتها العقدية والثقافية والتربوية، ويبني المؤسسات الفاعلة التي تقضي على السلبية والفساد، وتحقق قدرة الدعوة والتربية الدينية والإعلام، واستقلال مؤسساتها عن السلطة التنفيذية؛ حتى تنجو من مرض تزييف إرادة الأمة، ومن تهميش الدين ومفاهيمه ومقاصده، وتضع نهايةً لتوظيفه في خدمة مصالح رجال السلطة وأعوانهم، وفي تمكين الاستبداد والتبديد والفساد، في حياة الأمة العامة، وفي مختلف مؤسساتها.

إذا أدركنا ما عليه حال الأمة، على ما هي عليه اليوم، وحال رؤيتها الكونية، وحال ثقافتها ومنهج فكرها وأساليب تربيتها وبناء وجدان أبنائها، وما أصاب كل هذه الخطابات من خلطٍ وتشويهٍ، انتهى بها إلى السطحية والترهيب وتوظيف الدين لمصالح أصحاب النفوذ والسطوة والسلطان في المجتمعات المسلمة، والذي يبدأ بالطفل بمنهج الإملاء والاستظهار والمتابعة، وقهر العنف المادي والمعنوي، وتوظيف رموز القداسة لكبت روح النقد والفحص والتمييز، وكل ما يجره ذلك على عقلية الإنسان المسلم ووجدانه لاحقاً، إذا أدركنا ذلك نكون قد توصلنا إلى أهمية مسؤولية المفكرين والتربويين والمثقفين والعلماء والمستنيرين، وأهمية بذلهم وجهادهم في التصدي لإصلاح الخطابات العقدية والفكرية والثقافية والتربوية، بدءاً من العناية بخطاب التربية للآباء، وكافة

المؤسسات التي تقوم على شؤون الدعوة، وعملية التربية والتعليم الديني، ومؤسسات الإعلام التي يجب أن تتمتع بالاستقلال عن السلطة التنفيذية، وأن يتم اختيار قيادات هذه المؤسسات، على أن يكونوا من المؤهلين علماً ودرايةً وخلقاً، وأن يتمَّ ذلك عن طريق الانتخاب من قِبَلِ جمهور الأمة؛ ضماناً للنزاهة والولاء للدين والأمة فقط، وليس لمصالح رجالات السلطة وأصحاب النفوذ والمصالح الخاصة.

كما أن من المهم أن تعاد صياغة التعليم العالي وإعداد جميع الكوادر الفكرية والعلمية والمهنية؛ لكي تتحقق في مناهج التعليم العالي أيضاً وحدةُ المعرفة الإسلامية في تكوين عقلية الإنسان المسلم ودافعية الرؤية الإسلامية في نفسيته؛ حتى يحقق بدوره في الحياة مهمةَ الاستخلاف والإعمار الخيِّر، وبناء حضارة الأمة بكل الحبِّ والاقتناع والرغبة والإتقان، كما فطر الله الإنسان، وكما أراد له حين نفخ فيه الروح، واستخلفه، ووهبه أداة العقل، وحمَّله أمانة التصرف، وفطر في نفسه أشواق خيار الحق والعدل والرحمة والسلام، في مقابل نوازع الطين والغاب.

ومن المهم في هذا الصدد، الإشارة إلى تجربة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، التي بدأت مسيرة تجربة «إسلامية المعرفة»؛ التي أكَّدت «وحدة المعرفة»، واهتمت بأمر التربية الوجدانية «مؤسسة الأسرة والوالدية» و«التفكير الإبداعي» في «أدبيات التربية الإسلامية» وفي «مناهج التعليم الإسلامي»؛ فهذه التجربة تستحق من حركات الإصلاح، الدراسةَ والتأملَ.

إن المفكر المسلم، والمربي المسلم، والعالم المسلم، هم الأيدي القادرة على إدارة مفتاح تشغيل حركة التغيير والإصلاح الفكري والوجداني في الأمة، وخاصة في مجال التربية المتعلق أمرها بـ (الوالدين والأسرة) والتعليم المتعلق أمره بـ (المدرس والمدرسة)؛

لكونهما أساس كلِّ تغييرٍ وإصلاحٍ يسعى إلى تغيير الفرد؛ الذي بدوره يقوم بتغيير المجتمع والأمة ومؤسساتها؛ اتساقاً مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١).

إن على العقل المسلم، والإنسان المسلم، في سعيه للإصلاح، أن يذكر أن مقياس النجاح وسلامة الأداء، هو بسلامة النتائج، وليس بمزايدات الدعاوى، ودون ذلك لا يكون إلا كما نرى؛ لغواً وعجزاً وجعجعةً وهراءً مكرراً معاداً، وعلى أبناء الأمة في هذا الخضم أن يذكروا أنهم أمة رسالة النور والروح السامية؛ التي يجب أن تتسلح بالقدرة والقوة، في نصرة العدل؛ حيث «القوة للحق» في مواجهة انحطاط الطين وتظالمه[1]؛ حيث «الحق للقوة»، وصدق الله القائل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة:٧-٨)، وأنه سبحانه ألهم النفوس فجورها وتقواها، وزودها بقدراتها، وحمَّلها مسؤولياتها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:٩-١٠)، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة:١٢٠)، وهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (الملك:٢)، وهو سبحانه القائل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (الكهف:٧-٨).

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:١٠٥) و﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ

(١)﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ هكذا كان الإنسان قبل أن تنفخ فيه الروح، وهو يكون كذلك إذا تجرد في هذه الدنيا من عالم الروح ومن قيم الروح التي أودعها الله في فطرة الإنسان ونزل بها بيان القرآن.

مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ:١٣)، و﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ (آل عمران:١٩٥)، و﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (النور:٥٥).

ومن المهم أن نذكر في ختام هذا البحث؛ أنه دون استعادة الرؤية الحضارية الكونية القرآنية، ودون استعادة وحدة المعرفة الإسلامية وأساليب التربية الوجدانية السليمة، فإن مفردات «الخطاب الإسلامي» ومفاهيمه وقيمه تصبح كقطع الآلة المفكَّكة؛ فهي على الرغم من نفاستها في حَدِّ ذاتها؛ إلا أنها تبقى عديمة الفائدة والجدوى ما لم ينتظمها إطارها العام، وهكذا أمر «الخطاب الإسلامي»؛ فدون رؤيته الكونية القرآنية الحضارية لن يكون للمسلم، ولا للأمة رؤيةٌ ودافعيةٌ يُبْنَى بها الكيان، وتتحقق بها الذات المسلمة.

وملاحظة ختامية أخيرة يحتمها واقع الحال؛ فإن الأمة قد عانت، وما تزال تعاني، من تخليط الخطابات، إلا أن الأمر الذي يثير الخوف أيضاً -بسببٍ من ملابسات الصراعات والخطط والأزمات التي تعصف بالأمة في هذه المرحلة - هو أن يوظَّف بعضُ أصحاب الأغراض «الخطابَ الإصلاحي الناقد» في غير ما يهدف إليه المفكرون والإصلاحيون؛ في دفع مسيرة الإصلاح في الأمة، وترشيدها وتنمية طاقاتها، وتجديدها، خدمةً للإنسان، وتصحيحاً لمسار الحضارة الإنسانية في خدمة الخير والعدل والإخاء والسلام، «لهذا وجب التنويه» كما يقولون ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

كما أن من المهم، ألا يثني الأمةَ ورجالَ الفكر والإصلاح فيها، أيُّ معوِّقٍ عن مواصلة مسيرة العمل والإصلاح، فيجب ألا يتردد أو يتقاعس أحدٌ، عن مواصلة العمل، خشيةَ النعيق، وأن تأتي الجهود الإصلاحية -من منطلق الرؤية الذاتية -جهودَ

فعلٍ مصلحٍ دافعٍ؛ بعلمٍ، وخطةٍ، وهدفٍ، وليس مجرَّد جهودِ دفعٍ ودفاعٍ، أو مجرَّد أصواتِ توسُّلٍ وتبريرٍ؛ فيكون العمل مجرَّد ردود أفعال وتفجُّرات تأتي عند النوازل، وهجمة الأحداث؛ لتخمد بعد ذلك، وتضيع هباءً، كغثاء السيل، لا أرضاً تقطع، ولا ظهراً تبقي، ولا عدوًّاً ترد، ولا قدرةً تنتج، أي إن مسيرة العمل والإصلاح المنتج الواعي يجب – على الرغم من كلِّ الظروف – أن تستمرَّ في صبرٍ وتصميمٍ، فليس للأمة، دون سرى الإصلاح الجاد الشجاع، منجاةٌ ولا مخرجٌ.

وعلى الله قصد السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

«» [1]

---

(١) ...